

# الإنسان والزمن

قصته بقلم علي بدور

وسط هذا الجو انقاسي .. حيث صوت انسيارة يصل الاذان مجسما مئة مرة .. ورائحة البشر تتفاعل من كثرة الالتصاق حتى ليحار الانسان أهو يحس بنفسه أم انه اخلط بالآخرين .. ارتفع صوت الجندي بانعناء .. بصوت عال فوي .. كان حنجرتيه كهف كبير يضاعف الصوت ألف مرة .. أكثر من ألف مرة .. انه يرجعه بصداه المؤثر في النفس ، ويضيف اليه كل روائح انبراري المعشوشبة ذات الرانحسة العطرة ، وكل أضواء النجوم ، ويدع النفس نطل من خلال صوته المعبر عى نافذة مشرعة على الجنة .

الحياة الاسمينية مثل النافذة المفلقة ، يحس الانسان انه يحدث في أشياء كثيرة منها عندما يحدث في أعماق نفسه .. أحسست ان الموال أخذ يفتح لي نافذة على نفسي .. أخذ الصوت يعلو وهديسر السيارة يخف .. ركاب السيارة جميعا فروا وسكنوا في القفص الذي ظل يتحرك .. الصوت يعلو .. لا يزال يفتح كوى في النفس .. يفجر في الوجدان والضمير أشياء كثيرة .. ذكريات والآما وأحاسيس غريبة . الموال حزين ومؤثر .. انسيان يفمر سهول المستقبل ، يقطع التسلسل الزمني بسكين حادة .. الزمن اخذ يدور على نفسه .. اخذ يكرر نفسه .. بدأ يعود من الماضي جديدا .. شابة ، وجه الرجل المعجوز اخذ يتغير ، عضلاته أخذت تهتز ، شفاته كادت تنقطعان بأسنانه - ولكن لا مفر .. اندموج تتفجر من عيني الرجل المعجوز ، وتسيل .. تسيل بحوية على خديه .. صعدت يده الى عينيه تمسح دموعه ، كانت يده بلا كف ولا أصابع .. انها مقطوعة .. كانت تشبه جذع الشجرة اذا قطع من وسطه . نقد كانت يده مقطوعة .. خالية من الكف .. وكانت عيناه بعد أن أضاءتهما الدموع منطفئتين . انسه أعمى .. الموال الحزين يتابع مجراه في أعماقنا .. الدمع ينهمر من عيني الأعمى .. كان يشمخ تشبيحا خفيفا أشبه ما يكون باللحن الوحيد في جوفه الموال .. الزمن لا يزال يدور على نفسه .. لا يزال يكرر نفسه .. أشبه بالحيوان الممض العينين اندي يدور على الساقية .. الزمن يوحد رناب السيارة بدورانه حول نفسه .. حيث يستوي الشباب وانهمر .. تتوحد البداية والنهاية .. الجندي ماض في مواله .. دون ان يلتفت الى ما يتركه صوته في أعماقنا .. انه يحفر في صحارى قاحلة ، غائمة ، عطشى الى النعيم والسيادة .. فيفجر ماء أو دموعا .. ويخلط التنشوة بالالهم .. الرجل المعجوز لا يزال يمسح دموعه بيده المقطوعة .. ولغافته يمتصها بنهم غريب ..

الموال لا يزال يتردد .. الصوت يرتفع عاليا .. لم يعد القفص ضيقا .. اتسع علينا .. أخذنا نحس بارواحنا .. لم يعد مهما ضيق المكان .. لم تعد آذاننا تسمع سوى الغناء ، ولم يعد مهما ما نصره .. كان الموال يعذبنا ويتعبنا ، ولكنه في نفس الوقت كان يحزننا من الخوف .. كل أنواع الخسوف .. الخوف من الفشل في الامسال والاحلام .. كانت يتابعه جمة حبسية التقايد المورثة فتفجرت .. لقد فجرها أول ما فجرها ذلك الرجل المعجوز عندما كان أول الباكين .. لقد أبصر طريقه وسط ظلمة داكنة .. ان دموعه تسيل ، ويده الخالية من الكف لا يزال يرفعه الى عينيه ، ولغافته يمتصها بنهم وأبصارنا كلها عليه .. والموال يحفر في أنفسنا مجراه الجديد - يفتح الطريق لدموع جديدة قد تنهمر من الاعين .. وقد تصب على بحيرة النفس .. ويحمر

السيارة العتيقة تدرج بصعوبة على الطريق المعبد . ونحن الركاب كاندجاج في انفص عاندون الى بيوتنا ، بعد رحلة قصيرة الى أحد المصايف القريبة من مدينة حلب .

رائحة المازوت تغاد تخفق منا الانفاس .. حل الضيق وانزق محل اشرافة الصباح على انوجوه النفرة .. انظلم كثيف حولنا .. وليس في السيارة سوى شمعة مضيئة .

أحسست أنني سجين . وكذلك آل حاسة من حواسي الخمس . لم أعد أسمع ما أحب سماعه وارتد ابصر حبيس صندوق مفلق ، مغلف بانظلمة وانكشيت على نفسي صامتا . كان حولي بعض الشباب - سعادتهم في نصارتهم - وإلى جانبهم صعد من الطريق رجل عجوز لم يفت نظري أول الامر ، وإلى جانبه انكش داخل نفسه جندي قصير القامة كبير الرأس ذو عزم ظاهر واردة قاطعه .

نداعى الشباب فيما بينهم لئفناء .. ونحن أكثرهم احتج بصوت السيارة المستمر على وتيرة واحدة من الازعاج ... وظلوا في أخذ ورد الى أن انطلق الجندي بالفاء .

كانت السيارة قد امتلات مقاعدها ، وهي رغم صغرها لا تتسع لأكثر من عشرة رناب .. ولكن المرات التي ملاءها صاحب السيارة اتسمت لشرة رناب آخرين بين واقف ومقتعد أرض المر .

الفاء أخذ ينتشر في السيارة وينعش الركاب كسحابة توشك ان تهطل على حقل صغير ظامء ، وأبصاري تسمرت على الرجل المعجوز الذي أخذ يستحوذ على اهتمامي كله .. انه يوحى بالطمأنينة والسكون .. انه عزاء في هذا القفص الشيطاني بين هذا الخليط من الناس اندي يصعب جمعه بقدرة ساحر متفوقة .

كان الرجل المعجوز يرتدي الثياب البلدية ويعتبر قبعة قد لفها بغطاء أبيض .. وكان بياض شعر وجهه يكمل الصورة التي كانت تخفي حقيقة بانسة من حقائق الانسان .. كان منظره عدا السكون السذي يوحيه مظهره ليس فيه ما يلفت النظر الى درجة كبيرة ، انه والعديد من حوته متشابهون في كل شيء .. انهم أشبه بشجرات قطعت عنها الماء . سوف تذيبل وتنساقط أوراقها .. قد يقساوم بعضها قليلا .. ولكنه في النهاية سيستسلم للمصير .. اليؤس يجمع الناس ، يوحدهم من الخارج بشبابهم وأشكالهم ويوحدهم من الداخل ايضا ، يشتهون أمورا متقاربة ويفكرون بمواضيع واحدة .. ويعبرون عن يؤسهم تعبيراً لا يختلف كثيرا الا في التفاصيل .

كان الرجل المعجوز نموذجاً يمثل سائر ركاب السيارة .. بشبابه .. بأفكاره العلنة والمخفية .. بهوء نفسه واستسلامه لما يسمى بالقدر ، ذلك المجهول الذي يمتص الشكاوى ضد جميع المعروفين أولئك الذين يشار اليهم بالاصابع العشر .

صاحب السيارة واقف عند الباب لا يستطيع ان يتحرك .. ينظر نظرات باردة بلهائ ، يجول طرفه في اتركاب يبحث عن مكان خبيء قد يتسع لراكب جديد .. ليس مهتما الا بفكرة الريح .. ولو طبق الركاب بعضهم فوق بعض .. كان وجهه ينم عن أفكار محددة أشبه بسكة قطار لا التواء فيها .. كان يحلم بركاب أكثر عددا .. وأصغر حجما .. اذن لامتلا حبيبه نقودا .. واستطاع اقتناء سيارة أخرى وحقق أحلاما جديسة ..

اجنحتنا من عقالها فتخلق في عالم أحلامها المشتبه ..

الرجل المعجوز يرقص طربا .. دون ان يتحرك من مقعده .. رغم دموعه ومظاهره البائسة .. الموال أوقف له سير الزمن .. أعاده الى الخلف .. الى دنياه السالفة .. يوم كان شعره اسود وبسده سليمة .. وعيناه مضيئتين .. وروحه شابة .. وما دموعه هذه سوى ظفرة الرغبة في لقيها ذلك الذي كان ملء العين والقلب .

الظلمة في الخارج كثيفة حادة .. نور السيارة الضئيل يفتح لها طريقها .. اندموج تبصر طريقها بسهولة في عيون جميع الركاب .. ليس ضرورياً أن ننهض ، يكفي أن نطل .. ثم تجمد فسي المحاجر .. البؤس يوحد الجميع في هذا العالم المتحرك .. والخوف من الفساد يطل من جانب الافق المظلم .. ويتصاعد كالدخان .. يلف النجوم ، يطس طرق الضياء ، يخفي معالم الحقيقة واليقين .. الرجل الاعمى لا يزال ينسج الموال يقلمه للأطفال ، انه يخلفه من جديد ، يرده الى عالم صباه فويا مضيئاً غير خائف ولا وجل ، يذكره بأحلام شبابه الطرى .. ثم يسرع به في طريق انظلام ، يستلبه نور عينيه ، يفعله عن السعي ، يفقده كفه المقطوعة ، بدعه يبكي بينا الجندي يحاول ان يسمع مواله من في السموات العالية .

كان هذا العالم من حولي يؤثر في نفسي ، وكان منظر الرجل المعجوز وتذكرك الجندي وهو يجود مواله يفتح لي طريقاً خاصة بسي .. كنت أجد فيها الزمن على بعد خطوة او خطوتين مني .. فاذا تحرك قليلا أصابني بمثل ما أصاب ذلك الرجل المعجوز .. ليس مهما المطابقة ، يكفي أن يفقد الانسان حب انسان عزيز ، يكفي أن يموت من نحب ، ليس من أسباب الموت ، أن لا نحب الحياة ونتمتع بها فبئس أن نموت ؟؟

صاحب السيارة لا يزال واقفاً في مكانه .. لم يهتز نه جفن ، لم يطرب .. لم يتحرك .. لقد كان بلا روح .. لعله لا يزال يحلم بركاب آخرين وارياب اضافية على حسابهم .

حلب الشهباء تشرق من جديد بقلعتها المضاءة .. نحن نقتررب من بيوتنا وفبور آباءنا وأجدادنا فيها .. والموال يقتررب ايضا من نهايته .. فجر الصمت يشرق من جديد بانسوار خافتة موزعة على ارض الافق المضيء .. ورقاب الركاب تهتز وتتحرك ، تحدد من النوافذ في طيف الابنية والقصور الشامخة . صوت السيارة يسمع من جديد فسي الاذان بعد ان اغتسلت بصوت الجندي المطر بزهور البراري العطرة .. كل شيء يعود الى وضعه السابق قبل ان يتطوع الجندي بالفناء .. وقبل أن يبكي بجرأة وحرارة ذلك الانسان المعجوز .. انه لم يخجل

من البكاء .. لقد أحس به فاستجاب لاحساسه البريء الصادق .. نزلت من السيارة .. وودعتها بنظرة صامتة - ووقفت هنيهة أرقبها قبل أن تتجه الى المنزل وأحسست ببساطة ان الزمن الذي جعله السوال يدور على نفسه .. قد أخذ يعود سيرته الاولى وتأثيره في حياة بني الانسان .. لقد أصبح كل ما حدث في السيارة من الذكريات ..

احسست بالتمتع وانسا اعود الى المنزل .. كان هناك شيئاً يريد أن يختفي كست أدري ما هو ، ولكنني أسير أشجان قديمة ، حبسة النفس ، لا تستطيع أن تظهر وسط حياة اجتماعية معقدة أكثرها مظاهر كاذبة ، لا يزال الزمن بعد يمهله ليكر عليها من جديد بفسوته المهودة فيفعل بها ما فعله بذلك المعجوز الذي كان شاباً فأفعله بالعجز وأخذ منه يده وسلبه نور عينيه ، الزمن مجرم .. ونحن من ضحاياه !

\*\*\*

من بعيد .. كانت موسيقى ناعمة تنتشر في الفضاء .. وكانت عينا مضيئتين .. فرحت بعض الشيء لانني أحسست ان الزمن ليس غافلاً عني .. كانت صورة الرجل المعجوز لا ترح خيالي . لقد كانت منطبقة على كل شيء .. وكنت أبصر بجلاء أصابع الزمن مفروسة في عينيه ..

وتابعت طريقه .. لا يزال الموسيقى تتصاعد من النافذة المطلة على الطريق .. ولكن بلا موال ، كان قد أعادنا الى حقيقنا النسبي لا يؤثر الزمن فيها .. لقد جعل الزمن يدور على نفسه ، بدأ بنا الرحلة من أولها يوم كان الرجل المعجوز شاباً فتيا كانسام الصباح .. ثم عاد بسرعة كحريق اجتاز حفلا من القمح ينتظر مناجل الحصادين . وففت أمام المنزل .. الليل هادئ ساكن ينتفس أضواء النجوم المشعة .. أخذت أصدت اترج .. تابعت الصعود .. دخلت المنسزل وفي نفسي أحلام جديدة بالحياة .. كنت أطمح لو أبصرت طريقنا لا سلطان للزمن عليه ..

من نافذة المنزل .. كان الافق لا يزال مظلماً .. الفجر بعيد .. جد بعيد .. فكرت قليلا :

الجندي يوشك ان ينام متعباً .. الرجل المعجوز أشقته دموعه وهيج الموال ذكريانه .. صاحب السيارة يوشك ان يستريح قليلا من الوقوف وسط زحام الركاب .. وأنا متعب بالافكار والاماني .. الانسان ضعيف .. الزمن وحده سيبقى سيداً ..

علي بدور

حلب

صدر حديثاً :

# دراسات في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

منشورات دار الاداب

الثن ٢٥٠ ق. ل